قطار صدفة أم قطار فضائح ؟

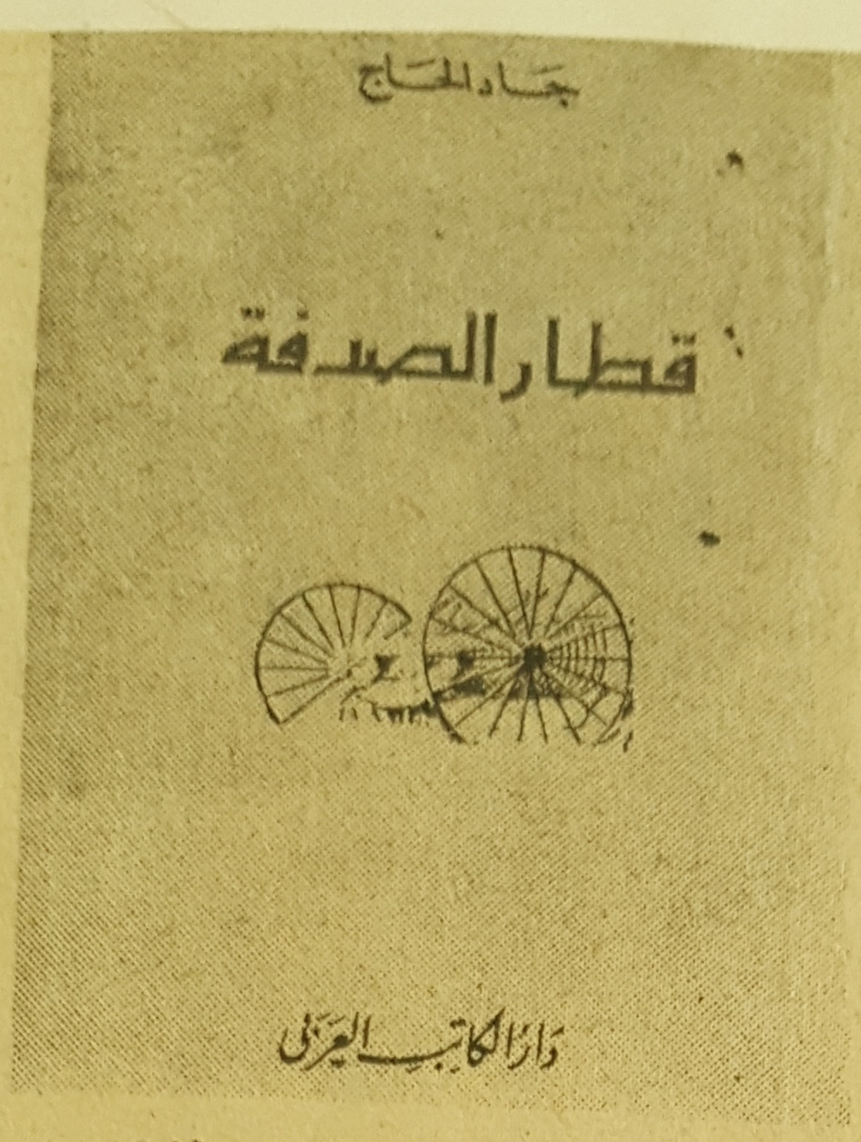

« قطار الصدفة » لجاد الحاج ، كتاب يشبه الرواية ، ويشبه الشعر ، ويشبه المذكرات اليومية ، انه قريب من كل هذه الموضوعات ، وعلى أعتابها ، ولكنه لا علاقة له بواحد منها على الاطلاق .

انطباعات مزاجية حادة ، تطمح الى الاثارة والاستجابة السريعة على حساب اثارة فضائح خاصة .

جرأة لا متناهية على ذكر تفصيلات هذه الفضائح ، وعرضها باسلوب درامي . ورغبة في تسلق أعلى درجات السلم بقفزة واحدة ، فضل جاد الحاج ان يثير الشماتة فيه والضحك على مواقفه ، والشفقة على بعض احواله .

وهي نظرة طالما نظر اليها التحليليون وكشفوا عن دوافعها . وذلك حين درسوا شخصية المريض الذي يحاول اخفاء عجزه ، اما بتضخيمه او باثارة الضحك حوله ، وذلك طمعا في الوصول .

على ان الفضيحة نفسها من افضل الموضوعات التي يمكن ان تقوم حولها ابداعات رائعة . جان جينيه .. بودلير .. رامبو .. بيرون ، واخرون جعلوا فضائحهم الخاصة جسرا الى اعمال ابداعية مذهلة ، لانهم كانوا اكبر منها . لكن فضائح « قطار الصدفة » من نوع اخر . انها البداية والنهاية .. ويأتي الادب حولها حاشية لتزيينها وتقديمها .

من الادب الى الفضيحة .. أم من الفضيحة الى الادب ؟ هنا يبرز السؤال الهام الذي يجب ان يطرح على كتاب امسكوا بظاهرة « المقرف » و« المقزز » و« المخيف » وحشروا بها كتبهم .

ونحن اذ نقرأ « حكاية ابي القاسم البغدادي » مثلا ، وهي من ادب القرن الثالث . نجدها مليئة بهذه الظواهر ، لا يخلو سطر فيها من الاثارة وصناعة الاشمئزاز ولكننا برغم ذلك ، نحس اننا أمام عمل ادبي مذهل . أما القرف حينما يصبح مهنة يتوسل بها الاديب اضفاء هالة من الحساسية المفرطة على نفسه .. فانها سرعان ما تؤدي عكس المطلوب ، وتجعل العمل الادبي نفسه مقرفا .

تبقى هناك لحظات صدق يستيقظ فيها جاد الحاج ويخرج قطار الصدفة عن السكة الى مزارع مجاورة وغنية بالثمار .

م . ع .

الانوار